رأيي ... في القصص الفائزة

بقلم الدكتور سهيل إدريس

لم تكن لي رغبة بان اشترك في اللجنة التي ألفتها « الآداب » للحكم في مسابقة القصة . ولكني اضطررت الى ذلك بسبب هذه الاقاصيص المئة والستّ التي شاركت في المسابقة ، والتي لم يكن معقولاً ان تُحال كلها على اعضاء اللجنة ؛ فكان لزاماً عليّ ان اقرأها كلها لأستبعد منهـا ما كان خارجاً على شروط المسابقة اولاً ، وما كان يكشف عن ضعف قصصي ظاهر ثانياً .

ولا اكتم القارىء الكريم أني أصبتُ اول الأمر بخيبة من هبوط مستوى الأقاصيص المشتركة . ولكني حين تأملت المسألة ، فطنتُ الى انـه لا محلّ للشعور بالخيبة هنا . فنحن ينبغي لنا الاّ ننتظر من كتاب القصة القدامى والممارسين ان يتقدّموا الى هذه المسابقة التي لم تدعُ الى اقامتها إلاّ الرغبة في تشجيع الأدباء الناشئين والمبتدئين .

ولكن ما لبثت اللجنة ان تلقت في آخر مدة القبول بضع اقاصيص جيدة ذهبت بالخيبة وانعشت الأمل ، وكان خير هذه الاقاصيص في رأي اثنين من اعضاء اللجنة على الاقل ، اقصوصة « صفعة سوط » بقلم مطاع صفدي . وقد يكون غريباً الا يقوم الاجماع على اختيار هذه القصة للجائزة الاولى ؛ فهي تسجل ، في رأيي على الأقل ، امتيازات كثيرة تجعل الهوة بينها وبين سائر الاقاصيص الفائزة ، سحيقة جـداً . وقد وقع اختياري للجائزة الثانية على اقصوصة « لاجئة » للدكتور بديع حقي ، وهي التي رشحها الاستاذ مارون عبود للجائزة الاولى ، ولكنها سقطت في نتيجة التصويت . وانا شخصياً اعتقد انهـا خير من الاقصوصتين الفائزتين بالجائزتين الثانية والثالثة ، موضوعاً واسلوباً فنياً . (١)

وايا ما كان ، فقـد انتهت المسابقة الآن ، ونُشرت الاقاصيص الثلاث الفائزة ، وآخرها في هذا العدد . وقد رأيت ان ادلي برأيي فيها ، وهذا من حق القراء عليّ ؛ ثم ان من واجبي ان ابرر اختياري ، وفي هذا توضيح لموقفي الذي أملاه عليّ اجتهاد خاص يظل ، آخر الأمر ، قابلاً للنقاش .

★

انني لا اقرّ الاستاذ شاكر مصطفى (٢) على ان قصة « صفعة سوط » « تدلّ على قلم لم يمارس القصة طويلاً بعد » . ربما كان صحيحاً ان هـذا القلم ، قلم الاستاذ مطاع صفدي ، لم يمارس القصة ، وانا لم اقرأ له شيئاً قبل الآن ، على شدّة تتبّعي للأدب القصصي المعاصر في اللغة العربية ؛ ولكنّ هذه القصة بالذات لا تدلّ على قلمٍ مبتدىء في معالجة هـذا اللون من الأدب ، بل هي تكشف ، بالعكس ، عن ان صاحبها ذو فن خاص ورؤية واعية . وأحسب ان في « صفعة سوط » من المزايا الفنيـة ما يسمو بها الى مرتبة رفيعة في القصة العربية الحديثة . ومن يدري ، فلعلّ الكاتب يمارس القصة منذ وقت بعيد ، ولكنه لا ينشر ، ولعلّه رأى ان ينتهز فرصة هذه المسابقة ليُخرج نتاجه من الظل ، وهذا اول الغيث ، فلننتظر الوابل !

إن اول ما يثير الاهتمام في تقنية في هذه القصة جانب التأليف والبناء فيها . فهي قائمةٌ على ركائز متينة من الحبكة الفنية . واول هذه الركائز السرد الذي ينهض على تمثّل ناجز لموضوع القصة ، اتاح للكاتب ان يخرجه بصورةٍ توفرت لها اسباب النجاح . فقد كان يُلقي هذه العناصر المتمثـلة عنصراً عنصراً ما مضى في السرد . وانا احسب انه وفّق اجمل توفيق الى استغلال هـذه العناصر في توضيح هذا الغموض المقصود الذي يطبع اول القصة . ولا ريب في ان القارىء يجـد بعض المشقة في تخيّل الجو والموضوع من بداءة القصة ، ولكن هذه المشقة تقترن لديه بالفضول ، وإثارة الفضول مطلب رئيسي للقصـة الناجحة . فاذا ما تابع القارىء المجتهد التلاوة ، رأى المؤلف يُلقي له بين حين وحين حطبة جديدة تضيف بعض النور الى ما غمض واظلم ، فينجلي رويداً رويداً .

وفي هذه الأثناء ، لا يوفر الكاتب على قارئه المفاجآت التي تلهب فضوله ، وهذه ركيزة ثانية للحبكة الواعية . ولكن هذه المفاجآت ليست هي في الحقيقة إلا نتائج يفضي اليها سير الأحداث طبيعياً . وهنا يبرز مظهر آخر من مظاهر الصناعة التركيبية لدى المؤلف . إنه يستبق هذه النتائج الطبيعيـة . فيكشف عنها في وقت لا ينتظرها القارىء فيه ، ثم يأخذ على عاتقه أن « يرتدّ » الى خلف ليسرد تلك الأحداث التي أفضت الى هذه النتائج . وأعتقد ان تلك « الاستباقات » وهـذه « الارتدادات » تكسب القصة قيمةً فنية رفيعـة وتجنّبها الاملال والاضجار اللذين يرافقان عادةً السرد العاديّ المتطوّر . ولعلّ القارىء ، حين يتعمّق القصة ، يلاحظ انها تبـدأ من نهايتها ، أي حين يكون البطل الرئيسي « أمجد » واقفاً يحملق في ماء يلوح امامه من مسافة قصيرة تفصله عن هذه التي وُجد المكان لكي يجعلها نائية ابداً عنه » . وفي نهاية القصة ترديد لهذه العبارة ؛ ولكن الكاتب تمكن من ان « يضغط » الزمن الذي جرت فيه الأحداث بين هذه النهاية وتلك البداية ، حتى خيّل الى القارىء ان القصة لم تدم زمنياً إلا يوماً أو يومين . وهـذا مردودٌ الى تلك القفزات والطفرات التي تثير الفضول ولكنها

---

(١) ستنشر هذه الاقصوصة في العدد القادم من « الآداب »

(٢) راجع باب « قرأت العدد الماضي من الآداب » في العدد السابق ، شباط ١٩٥٤ .

لا تثير الدهشة أو الاستنكار . إن زمن القصة هنا هو زمن نفسي لا زمنٌ تاريخي . وما دام الكاتب قد استطاع ان يعبّر تعبيراً ناجحاً عن هذا الزمن النفسي ويَصِل فواصله فيما بينها وصلاً منطقياً سلياً ، ويتابع تطوّر النفسية الرئيسية متابعة ليست فيها أوقات جوفاء ، فلا مجال بعدُ للقول إن القصة « طويلة الأحداث جداً طولاً لا تحتمله اقصوصة » كما هو رأي الاستاذ شاكر مصطفى . فليس مفروضاً للاقصوصة ان تكون قصيرة الاحداث ، وإنما المعوّل ان تنجح في تصوير جوّ ونفسية ، سواء تناول الموضوع احداثاً طويلة أم تناول فترة ازمة صغيرة . المهمّ ان يبلغ الكاتب الاستقطاب المركّز ، وأحسب ان مطاع صفدي قد بلغ ذلك في وصف هذا الصراع الذي كان يعصف بنفس أمجد المتوزّعة الممزّقة بين رواسب طبع السادة الذي اكتسبه من تربيته ، وإحساسه بالظلم الاجتماعي الذي ترزح تحته عشيرته وقومه الفلاحون . صحيح ان زمن القصة يتطاول الى أكثر من اربع سنوات ، ولكن ازمة الصراع تنتهي في شهر واحد . وما دام الكاتب قد بدأ قصته عقب هذه السنوات الأربع ، فإن بوسعه ان يستعيد احداثها بواسطة الهامّ العميق من ذكريات هذه الفترة . ولو أنه قد عني بسرد تفاصيل هذه الاحداث سرداً تطوّرياً سريعاً ، لكانت قصته حقاً رواية ملخّصة أو اقصوصة مكثّفة ، ولهبطت الى مستوى «السيناريو» الذي يهبط اليه كثير من اقاصيصنا العربية .

والواقع ان المؤلف يعمد الى بعض معطيات علم النفس في تحليله الذي يحلّق به في كثير من مواقف القصة . فهو يبدأ بالتداعي ، تداعي الافكار وتداعي الكلمات لينسج الخيوط الاولى للحبكة : الماضي «الشامخ» يتمثل في سامية تقف امامه بعد هذه السنوات الأربع ، فتذكّره بالحاضر الذي يشبه الوهم ، وتذكّره كلمة «الشامخ» بكلمة «الانوف» و «العنجهية» و « العزّ » . ولكنه مع ذلك كان يُعدّ نفسه لمثل هذه اللحظة ليبادرها خصباً عنيفاً « أنوفاً » . وفكرة المبادرة هذه تستدعي الى ذهنه مبادرةً اخرى واجه بها ابن عم سامية الذي كان يوماً واقفاً تجاه باب كوخ حقير ، لم يكن غير كوخ والد أمجد ، وكان يأمره بوجوب جني المحصول . وكان مفروضاً في الأب ألاّ يتقبّل يومذاك أي أمر ، فهو « لم يعد مجرد فلاح .. إنه ابو رجل مثقف » وهكذا يتحدث الكاتب عن هذا المثقف وعن نشأته ودراسته والمال الذي كان يُرسل اليه من اسرة «سامية» ثم عن عودته الى القرية ليشعر والده بان بوسعه ان يرفع الآن رأسه . وفي ذلك اللقاء بالذات ، تلمع فرقعة السوط على عنق أمجد .

في هذا القسم من القصة جمع الكاتب جميع خطوط الأحداث ، فكان عليه بعد ذلك ان ينجز رسم هذه الخطوط ويكسبها معانيها واتجاهاتها . وهو في ذلك لم يكن أقل براعة من فنان يضرب لوحته اول الأمر بلمسات سريعة من فرشاته ، حتى إذا تمّ له هيكل رمزي ، عمد الى الألوان والظلال يكسو بها ذلك العظم . وقد كان في كل قسم من القصة يلقي اولاً بالحدث الرئيسي او بالشعور الاعمق الذي هو نتيجة مرحلة اخرى من تطور هذا الصراع ، ثم يرتدّ اليه يُسلسله ويوضحه في لمسات حية من قلم صناع .

والحق ان هذه اللمسات السريعة من الحيوية والعصبية بحيث تكفي ، على ايجازها ، لنصب شخصيات متميزة في القصة . فحسبك ان تعلم ان نظرات سامية الى امجد — في البدء — كانت تحمل تأييداً غامضاً حتى تدرك ان في نفسها حباً مكنوناً لهذا الشاب الذي كان يأتمر باهوائها في حداثته . ويكفيك ان تراها بعد ذلك تمدّ اليه يدها بالسوط لتفهم انها تريده على الا يقاوم سلطانها الماضي عليه ؛ واذا الفيتها بعد هذا تغتبط لظهور ابن عمها في حياتها ، بالرغم من انها تكرهه ، ادركت ان امامك فتاة قلقة مترددة متوزعة بين حبها ورفعة محتدها ، وصمتها وتصريحها .

اما شخص البطل نفسه فمرسوم على غاية من الدقة . إنه نموذج الانسان الذي يصارع نفسه واعداءه ، ويظل يعاني هذا

صدر حديثاً

١٠ قصص عالمية

تمثل انتاج الجيل الجديد من ادباء القصة في العالم

وقد فازت بجائزة جريدة « نيويورك هيرالد تريبيون »

نقلها عن الفرنسية

الدكتور سهيل ادريس

دار العلم للملايين — بيروت

الثمن ١٥٠ قرشاً لبنانياً او ما يعادلها

النضال حتى ينتصر ويحطّ دربه في الحياة .

على ان شخصية « خديجة » تظل مبهمة نسبياً ، وهي الى ذلك تثير بعض الشك في صدق كينونتها ، بسبب هذه الرسالة القصيرة التي تبعث بها الى المجد والتي يصعب جداً ، اذا لم نقل يستحيل ، ان تصدر عن قروية فلاحة ، هذا اذا كانت قروية . ففي الرسالة وعي وادراك عميق لا تستجيب لهما اوضاع الفلاحين في بلادنا ، ولا سيما النساء فيهم . ولا شك في ان الكاتب شاء ان يخلق من « خديجة » رمزاً يدعو به الى مشاركة المرأه العربية الرجلَ في صراعه ، وهذه نزعة محمودة من غير شك ، ولكننا نحسب ان الكاتب لم يوفّق في تجسيمها والتمثيل لها بالنموذج الملائم .

ولا بد من الاشارة ايضاً الى ان طريقة «المونولوغ الداخلي» التي استعملها الكاتب قد لوّنت القصة وبثّت فيها تنويعاً غنياً زاد في حيويتها .

ومما لا ريب فيه ان فكرة القصة ، فكرة رائعة بمغزاها . انها دعوة الى مكافحة الاقطاع والاستغلال والظلم الاجتماعي في تجربة الارض بين المالك والعبد . وتلك آفة نشكو منها مرّ الشكوى . وامتزاج الموضوع بالتقنية الجمالية هذا الامتزاج الموفق الذي لا يُغلّب احدهما على الآخر ، وجمال اسلوبه ، على تفاوته ، وسلامة لغته ، كل ذلك قد دعاني الى ترشيح هذه القصة للجائزة الاولى . ولئن كنت شخصياً قد احببت فيها هذا الرمز الذي تنطوي عليه صفعة السوط في انطباع اثرها اول الامر ثم في احائه ، فقد استثقلت فيها العبارة الاخيرة «ولكن متى ستمحي (صفعة السوط) عن عنق الملايين ؟ » وكم تمنيت لو اسقطها الكاتب ، إذن لأنجى الحاتمة من هذه اللهجة المنبرية الوعظية التي لا تنسجم مع فنية هذه القصة إجمالاً . وأحسب ان « صفعة سوط» كانت بغنى عن هذه العبارة التي لا تضيف شيئاً الى النزعة التي يقصد اليها الكاتب ؛ ولعله كان بوسعه ان يأتي بهذا المعنى ، إن اصرّ على ايراده ، عن طريق الايحاء بصورة او بلفتة قصصية .

على ان هذه الملاحظة لا تنتقص من قدر « صفعة سوط » ، فان فيها إرهاصاً بموهبة قصصية شديدة الغنى ، وافرة الامكانيات .

★

واما الاقصوصة التي فازت بالجائزة الثانية «سأربح الجائزة» ، والتي رشحتُها للثالثة ، ولعلّ كاتبها كان يقصد بعنوانها الجائزة الاولى ... فانها من طينة اخرى ، لا نسب بينها وبين طينة القصة الاولى . إن الفكرة التي اوحتها فكرة طريفة دون ريب ؛ بل هي من الطرافة بحيث تجذب القاريء وتستأثر باهتمامه ، وانه ليقرأها في كثير من الاقبال .

وواضح ان القصة تقوم على « لحظة نفسية » يعيشها الكاتب بسببٍ من هذا الاعلان عن مسابقة القصة .. ولكنّ هذه اللحظة تجمع اشتاتاً من المآسي والذكريات والمحاكمات الفكرية ، ولا تتركز حول قطب بعينه . إن الاشخاص فيها اشباح لا تعيش حياتها قصصياً ، وانما هي تعيش انخطافاً في ضمير الراوي ، فهي بالنتيجة على الهامش . والحق انه كان باستطاعة الاستاذ انعام الجندي ان يطيل القصة بعدُ الى ماشاء الله ، ما دام همّه الاول ان يتحدث عن فلسفته في الحياة عبر احداث ضئيلة ، كما انه كان بوسعه ان يقصّرها الى نصفها . فان « الضرورة » القصصية مفقودة إذن في هذه الاقصوصة التي تمتُّ بالاحرى الى المقالة . صحيح ان الافكار التي تنطوي عليها والنظرات التي تنبعث منها سامية ومؤثرة وموحية وواعية ، ونحن بحاجة اليها من غير شك ، ولكن العنصر القصصي فيها ضعيف جداً ، والنسيج الفني مهلهل الحبك . انها حديث نفسي ينقصه الاطار القصصي . وانا احسب ان الكاتب كان يستطيع ان يتناول طرفاً واحداً من هذه المآسي التي حشدها ، قصة لمياء التي اعتدى عليها الصهيونيون مثلاً — فان فكرتها تعدُ بغنىً قصصي — ويعالجها المعالجة الفنية المركزة ؛ وهو لن يعجزه ، إن كان مرهف الذوق الفني ، ان يحمّلها ماشاء من نزعاته ، بواسطة رؤية قصصية خاصة .

انها « موضوعٌ » موحٍ وطريف وواعد ، ولكنها « قصة » ضعيفة بالاجمال . وانما اخترتُها للجائزة لأنها ، على ما هي عليه ، خيرٌ من الباقيات .

★

والواقع اني ترددت طويلاً بينها وبين « الظلام المخمور » للاستاذ غانم الدباغ ثم آثرتها بسبب أنّ هذه الاخيرة أقل « جهداً » ، في رأيي ، منها . فهي تنهض فحسب على تداعي المعاني والكلمات ، يعبر عنه شاب مخمور جالسٌ في مقهى . انه في الحق موضوع طريف جداً ، وفيه نظرات قومية نافذة ، ولفتات فكاهية بارعة ؛ ولكنه لا يخرج ، آخر الامر ، عن ان يكون بحثاً متقطّع الحلقات ، لا قصة فنية محبوكة .

سهيل ادريس